المحاضرة الثالثة: الفترة الرستمية:

1_ الحياة الأدبية والفنية:

أ- الحياة الأدبية:

ينبغي أن نذكر أن أئمة الدولة الرستمية في تاهرت الذين استهان أكثرهم تماما بشؤون الحياة الدنيا والذين كان همهم الوحيد فيها الظفر برضى ربهم كانوا معنيين عناية كبيرة بالعلوم الدينية. وكان أغلب العلماء الذين توفروا على دراستها عاشوا عيشة الورع و الزهد و التقشف متبلغين بقبضة من شعر مقلق أو ببضع تمرات منهمكين ليل نهار في العبادة و التحنث.

قال أبو زكريا عن بني رستم " كان بيت الرستميين بيت العلم في فنونه من الأصول و الفقه و التفسير و علم اختلاف الناس و علم النحو و الإعراب و الفصاحة و علم النجوم. و أضاف قائلا: وبلغنا أن بعضهم قال: معاذ الله أن تكون عندنا أمة لا تعرف منزلة يبيت فيها القمر. ومن بين الأئمة الرستميين الذين امتازوا بغزارة العلم نذكر عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم و أفلح بن عبد الوهاب وأبا اليقظان.

قال أبو زكريا متحدثا عن الإمام عبد الوهاب: بلغنا أن عبد الوهاب – رضي الله عنه– سمر ذات ليلة هو وأخوه ليتعلمان مسائل الفرائض، فلم يصبحا إلا وهما يورثان أهل المشرق وأهل المغرب. وكانا في سمرهما يقدان مصباحا يجعل له عبد الوهاب للفتائن عن عمامته حتى أتى عليها.

وذكر بعض أصحابنا أن عبد الوهاب بعث ألف دينار إلى إخوانه من أهل المشرق بالبصرة أن يشتروا له بها رقا، و يجعلوا من أنفسهم الجير و الأقلام و عولة الكتاب، و أخذوا في النسخ فنسخوا له أربعين حملا من كتب، فبعثوا بها إليه، فلما جاءته نشرها و

قراها حتى أتى على آخرها بأجمعها فقال: الحمد لله، ليست منها مسألة ليست عندي إلا مسألتين لو سئلت عنهما لقستهما إلى نظائرهما من المسائل . و لصادفت ما ذكره في الكتاب و روى ابن الصغير انه كان لعبد الوهاب كتاب معروف بمسائل نفوسه الجبل لأن نفوسه كتبت إليه مسائل أشكلت عليها، فأجابها عن كل مسألة ممال سألت عنه" . وقال: قعدت عليه أربع حلق يتعلمون عنه فنون العلم قبل أن يبلغ الحلم، وبلغ في حساب الغبار والنجامة مبلغا عظيما. وروى لنا أبو زكريا القصة التالية:

وذكروا عنه أنه قعد ذات ليلة هو وأخته، فقال لها: هلم نحسب ماذا يذبح في السوق غدا أولا إن شاء الله . فحسب فقال لها أفلح: أن" أول ما يذبح في السوق بقرة صفراء في بطنها عجل ذو غزة في جبهته. فقالت له: صدقت ، هي البقرة الصفراء، وفي بطنها عجل غير الذي رايته هو طرف ذنبه أبيض تعممه على جبهته فخلته أبيض الجبهة ذا غزة و إنما ذلك طرف ذنبه.

وقد كان الإمام الخامس أبو اليقظان مشهورا هو أيضا بعلمه، فقد ألف عدة كتب ليجيب المخالفين. نقل الشيخ بكري فقرة من رسالة لأبي اليقظان رواها البرادى في كتابه الجواهر المنتقاة، أن أبا اليقظان قال ما معناه.

إن القرآن كلمة الله هو حقيقة ملموسة في نفسه ولا يمكن أن يكون إلا الله نفسه– أو جزءا من الله أو شيئا آخر غير الله– إذا قلنا أن نعترف أن القرآن هو الله لزم حينئذ أن نعترف له بنفس صفات الأبدية والقدرة والخلق....إلخ– و بالتالي يجب أن يعبد، وذلك مستحيل.

إذا قلنا أن القرآن هو جزء من الله يصير الله تعالى حينئذ ممكن الانقسام إلى أجزاء، وذلك مستحيل إذن أن القرآن ليس هو عين الله جزء من الله بل هو منفصل عنه ، فليس أمامنا حينئذ إلا حالتان أما أن يكون قديما فهو إذن سرمدي مثل الله. وأما أن يكون مخلوقا

فإذا استحال أن يكون سرمديا من غير أن يكون جزءا من الخالق فلا يكون إلا حقيقة غير الله و يكون الله هو الذي خلقها وقد اتخذت هذه الرسالة موضوعا لدراسة مفيدة في اللغة الايطالية عنوانها: وثيقة قديمة اباضية حول خلق القرآن رسالة الأمام الرستمي محمد أبي اليقظان نشرتها فانا كريمونيزى.

كان أبو اليقظان معروفا بورعة العميق الشديد بمثل ما كان دقيق المحاسبة لنفسه في استقامة سلوكه كما بينا ذلك فيما سبق أن أصالة تاهرت– فيما يخص العلوم الدينية– كانت كامنة في تواجد ممثلين لكل الفرق في هذه المدينة، نرى الصفرية و اليزيدية والنكار و المعتزلة بجانب الاباضية حتى السنية مثل المالكية.

وكان الاباضية يدعون في أغلب الأوقات أتباع الفرق الأخرى لحضور ندوات كان كل مشارك فيها حرا للدفاع عن وجهة نظره وعن مذهبه – وكان يشترط في الشيخ الاباضي أن يكون متضلعا في معرفة اللغة العربية و القرآن الكريم و الحديث والفقه وعلم العقائد وتاريخ الخليفتين الأولين وتاريخ صحابة الرسول (ص).

إن أشهر إباضي في علم الكلام و المناظرات الخطابية من دون ما ريب كان مهدي النفوسي الذي عاش في عهد عبد الوهاب، كان رجلا شديد الورع زاهدا في حطام الحياة الدنيا كما يدل على ذلك ما ذكره أبو زكريا، قال: بلغنا أن مهدي حين كان بتاهرت خرج ذات مرة عن أصحابه، فتغيب عنهم، ولم يدروا أين توجه. فلما جهنم الليل و قرب عشائهم انتظروا حتى أيسوا منه وأكلوا حاجتهم وأفضلوا له عشاءه ، فكانوا كذلك إذا قبل إليهم مهدي، فقالوا له: أين تغييت ؟ ومن أين جئت، وقد برد عشاؤك؟ – فقال لهم : إني رددت إلى دين الله سبعين عالما من أهل الخلاف في غيبوبتي عنكم.

فتقدم إلى عشائه، فصادف عجينا عجنوه لغذائهم، فكشف عنه، فصار يأكل ، فلما كاد يشبع قال لأصحابه كأن عشاءكم الليلة لم يطبخ ولم يطب. وقد وجدت فيه طعم العجين. قال بعضهم: لعلك إنما صادفت عجين غذائنا.

ففتشوا. فوجدوا العجين هو الذي صادف. وقال لهم مهدي: حمدت الله على ثلاث، واحدة أنني إذ أقدم الطعام ما أبالي أي طعام كان. فإني أقضي منه حاجتي والثانية: إذا أخذت غفوة من النوم أجتزيت بها. والثالثة: لست أتخوف مخالفا على نفسي أن يغلبني في حجة إلا أن ركنت في دين الله.

حسبما ذكر ابن الصغير كانت المناظرات بين فقهاء الفرق المختلفة متسمة باللياقة و الملاطفة– قال: إن الفقهاء تناجبت المسائل فيما بينهم و تناظرت اشتهت كل فرقة أنتعلم ما خلفتها فيه عاقبتها ومن أتى إلى حلق الاباضية من غيرهم قربوه وناظروه ألطف مناظرة.

ولكن قد يقع مع هذا أن المناظرات الخاصة بقضية أساسية ذات صلة بالعقيدة كالتي أثارت الصراع بين الاباضية والمعتزلة في عهد عبد الوهاب ربما كانت تنتهي بمعارك دامية، فقد روى لنا أبو زكريا هذا الحادث في سيرة، قال : إن الإمام – رضي الله عنه– بعث إلى رئيس المعتزلة و سيدهم بأنه سيخرج إليهم في اليوم الفلاني و ضرب لهم أجلا....

فاعتذر الإمام إلى المعتزلة ودعاهم إلى ترك ما به ضلوا، فأعذر إليهم في الحجة، فأبوا إلا مناصبته، فسألوا المناظرة، ثم أن الإمام رضي الله عنه أمر بالصفوف. فصفت والواصلية قد صفت صفوفها، فخرج مهدي للمناظرة بين الصفين و من معه من أصحابه وجماعته المسلمين، فخرج معهم الإمام بوجوه أصحابه، فخرج الفتى المناظر من المعتزلة و وجوه المعتزلة معه.... فخرج مهدي وتقدم إلى الفتى المعتزلي.....

ثم أنهما جرت بينهما وجوه من المناظرة، و الناس يعملون ما يقولان، فلم يفلح أحدهما على صاحبه، ثم أنهما دخلا في فنون العلم فخفى ذلك عمن حضرهما، غير أن الإمام

يعلم ما يقولان حتى صار كلاهما عند جماعة من حضرهما كالصفق بين الحجرين عند الإمام وعند غيره، فما كان أوشك أن علبه مهدي.... فلما افترقا من المناظرة وقد أفلح عليهم مهدي خرج الفتى المعروف بالشجاعة من المعتزلة فطلب المبارزة.... فخرج (أيوب) إلى الفتى فاقتتلا مليا وتضاربا قليلا. فحمل عليه أيوب بن العباس فضربه فقتله.....

فلما رأت الواصلية ابن رئيسها وعميدها وفارسها الذي يحمي عنها صريعا ولوّا منهزمين بعد ما حمي الوطيس واشتدت الحرب واستمر القتل في المعتزلة و بجانب مهدي النفوسي ينبغي أن نذكر من بين المتكلمين المشهورين إسحاق بن عبد الملك الملشوني وأبا مرداس مهاصر وعيسى بن فوناس ومحمد بن بكر والقاضي محمد بن أبي شيخ و أبا عبيدة.

إن إسحاق بن أبي عبد الملك الملشوني (حوالي الخمسينيات من القرن الثالث الهجري والستينات من القرن التاسع الميلادي).

كان شيخ امراء بني الأغلب ونديم بلاطهم إسحاق بن أبي عبد الملك الملشوني نسبة إلى ملشون قرية من قرى بسكرة قرب تهودة، كان إسحاق وأبوه عالمين يحمل عنهما العلم، كان إسحاق عالما ثقة مؤرخا ثبتا ذا دراية واسعة بعلم التاريخ، أخذ عن والده وعن مشايخ بلده، جالس الإمام سحنون بن سعيد صاحب المدونة (160- 240) بالقيروان، وأخذ كلاهما عن الآخر، قال أبو العرب: سمعت بعض المشايخ ممن كان يروى البدئي من الأخبار يحدث عن إسحاق بن أبي عبد الملك الملشوني أن عقبة بن نافع كان معه في عسكره خمسة وعشرون من أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم ، أن عقبة جمع مجموعة أصحابه ومن العسكر.فداريهم حول مدينة القيروان، و أقبل يدعو لها ويقول في دعائه اللهم أملاها علما فقها و عمرها بالمطيعين و العابدين، واجعلها عزا لدينك وذلا لمن كفر بك. وأعز بها الإسلام. و أمنعها من جبابرة الأرض قال:فتلك معصومة من كل جبار عنيد".

روى البكري أن إسحاق بن أبي عبد الملك الملشوني قال: لم يدخل افريقية نبي قط، وأول من دخلها بالإيمان حواري عيسى بن مريم عليهما السلام.

ذكر المالكي في الرياض أن أبا العرب قال: أن أمراء بني الأغلب كانوا يرسلون إلى إسحاق فيكون عندهم في شهر رمضان فيحدثهم بالعجائب حتى يقطع بهم طول النهار .

وكان ربما جالس سحنون بن سعيد، وكان الشيخ أبو القاسم بن شيلون الفقيه– ض– يروي فيما يرويه إن سحنون بن سعيد دخل على محمد بن الأغلب الأمير أول يوم من شهر رمضان ، فألفى الأمير خاليا، فقال له: أراك أيها الأمير خاليا. فقال : نعم انفردنا في هذا الشهر المعظم وخلونا فيه ، وتركنا ما كان لغير الله عز وجل. فقال سحنون: فأين أنت أيها الأمير من إسحاق الملشوني يحدثك بأخبار الأمم السالفة و الأعوام الماضية . فأمر محمد بن الأغلب بإحضاره، وكان يحضر عند محمد بن الأغلب في كل يوم يحدثه بذلك حتى انقضى شهر رمضان.

و عاش أبو مرداس مهاصر في عهد الإمام عبد الوهاب ذكر الدرجيني أنه رأى خطا من غير قصد امرأة مكشوفة الرأس فصام سنة كفارة على ذلك لكثرة اجتهاده، وأنه فرغ ماء وضوئه ، فخرج يطلب الماء فطلبه من سبعة أبيات من جيرانه، فلما لم يجد رأى أن قام غدره، فعدل إلى التيمم.

روى ابن الصغير أن عيسى بن فرناس كان شديد الورع . ومما أمتاز به أنه كان يقابل الإمام أبا اليقظان حين جلوسه في المسجد.

و إن محمود بن بكر كان رجلا من العرب وكان أخص الناس بالإمام أبي اليقظان وكان غالبا فيهم وكان مدارهم الذي يذب عن بيضتهم و يدافع عن دينهم و يرد على الفرق في مقالاتهم ويؤلف الكتب في الرد على مخالفهم.

و أن القاضي محمد بن الشيخ كما مر بنا ذلك آنفا – لم يتردد في تسليم استقالته من خطة القضاء للإمام أبي اليقظان بسبب اختطاف أحد أبنائه لفتاة.

وذكر ابن الصغير قصة أبي عبيدة و الإمام أبي اليقظان فقال: " وكان منهم رجل يعرف بأبي عبيدة الأعرج كلهم مقرون له بالفضل معترفون له بالعلم مسلمون له في الورع إذا اختلفوا في أمر من الفقه أو من الكلام صدر واعن رأيه... وكان قليل الدخول على أبي اليقظان ولم يكن يجمعه وإياه سوى المسجد الجامع.... فضرب يوما أبو اليقظان سرادقه لحدث أراده . و علم الناس بخروجه فخرج إليه الفقهاء و القراء. و ضربوا أبنيهم حول سرادقه خلا أبي عبيدة. فبينما الناس ذات يوم جلوس إذ أقبل أبو عبيدة راكبا على دابة. فقال الناس: هذا أبو عبيدة قد أقبل متفقدا الأمير مسلما عليه. فأعلموا بقدومه أبا اليقظان.

فلما دخل عليه أدناه إلى نفسه فقال: ما جاء بأبي عبيدة إلينا متفقدا أم مسلما أم ماذا؟

فقال أبو عبيدة : أصلح الله الأمير. ما جئت مسلما ولا متفقدا غير أن جارة لي خرج ولدها البارحة في طلب معاش له و لها. فأخذه صاحب حرسك وحبسه، فأتتني الغداة باكية شاكية تسألني أن أسألك في إطلاق ولدها". فأمر (أبو اليقظان) بأن يطلق. كل من حبس تلك الليلة إجلالا لأبي عبيدة. ثم سلم و انصرف .

ومما ذكر ابن الصغير أيضا عن أبي عبيدة أنه قد أشهر بمرؤته و حسن أدبه وأن المغرب كله كان مفتونا بهذا الرجل حتى إن من كان من الاباضية بسجلماسة يبعثون إليه بزكاتهم يصرفها حيث شاء.

علاوة على المتكلمين و الفقهاء كان في تاهرت أدباء و شعراء و مؤرخون و علماء يهود . يقول ابن الصغير " أن أبا بكر الإمام كان يحب الآداب و الأشعار و أخبار الماضين." أما ما يخص الشعراء فنذكر الإمام أفلح وزيديت الملوشية و بكر بن حماد و سعيد بن واشكل و أحمد بن فتح التاهرتي.

إن الإمام أفلح تنسب أبيات في مدح العلم وهي:

العلم أبقى لأهل العلم آثارا يريك أشخاصهم روحا وأبكارا

حيٌّ وأن مات ذو علم وذو ورع ما مات عبد قضى من ذاك أو طارا

وذو حياة على جهل و منقصة كميت قد ثوى في الرمس إعصارا

لله عصبة أهل العلم أن لهم فضلا على الناس غيابا و حضارا

وقد ذكر لنا المؤرخون بجانب اسم الإمام أفلح اسم شاعرة وهي زيدبت الملوشية التي عاشت في نهاية القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي. وقد ذكرها الشماخي.

أما بكر بن حماد فيعتبر أكبر شاعر في عصر الرستمين . ترجمة بكر بن حماد التاهرتي (200–815/296– 908) هو أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سمك بن إسماعيل الزناتي ولد ونشأ في تاهرت و تعلم فيها. ثم رحل إلى القيروان لمواصلة تكوينه في الأدب والشعر و الفقه و الحديث و أصول الدين . سمع من سحنون بن سعيد القيرواني صاحب المدونة (160– 777/240– 854) ومن عون بن يوسف الخزاعي.

روى المالكي قال: قال بكر بن حماد: " لما فرغت من قراءة كتبي علي عون– و هي كتب ابن وهب– قلت له : يا أبا محمد كيف كان سماعك من ابن وهب؟ قال: ما أخذت كتبه منه إلا قراءة. قرأت عليه أن وفرا على ، ولو كانت إجازة لقلت : أنها إجازة"

ثم رحل إلى البصرة سنة سبع عشرة ومائتين، فأخذ الحديث فيها عن مسدد بن مسرهد المحدث (228–842– 843) وعن الحافظ عمر بن مرزوق (224/ 238– 839) وجماعة من العلماء و أخذ فنون الأدب و الشعر وعلوم العربية عن ابن الأعرابي (150– 767/231– 845) . وعن الرياشي العباس بن الفرج بن علي (177– 793/257– 871) . وعن أبي حاتم السجستاني البصري المتوفي سنة 248/ 862 وغيرهم. ولقي

من الشعراء في ذلك الوقت دعبل بن علي الخزاعي (148– 246/ 765– 860) و حبيب بن أوس أبا تمام الطائي (188– 231/ 804– 846) وعلي بن الجهم (ت 249 /863)، و شعراء آخرين .

و قد ذكر أكثر الدراسيين لترجمة بكر بن حماد أنه لقي في المشرق طائفة من الشعراء. منهم مسلم بن الوليد (ت 208/ 823). والحقيقة أنه لم يلقه قط لأنه رحل إلى المشرق بعد وفاة صريع الغواني بتسع سنين يقول أحمد المقرى التلمساني في النفح أن قاسم بن أصبغ (247– 340/ 862– 851) البياني القرطبي محدث الأندلس سمع بالقيروان من أحمد ابن يزيد المعلم ومن بكر بن حماد . وأن أبا عبد الله محمد بن صالح القحطاني المعافرى الأندلسي المالكي (ت 993/283) سمع بالمغرب من بكر بن حماد و محمد بن وضاح و قاسم ابن أصبغ.

وقد ورد في كتاب المعالم أن بكر بن حماد كان ثقة عالما بالحديث ورجاله شاعرا فصيحا وورد فيه أيضا أنه كان فقيها فاضلا جليلا ثقة مأمونا ثبتا صدوقا إماما حافظا و شاعرا مفلقا. ترجم أبو بكر الملكي لبكر بن حماد واورد له كثير من الشعر في رثاء ابنه وفي الزهد و قال: سعي به إلى إبراهيم بن أحمد الأمير. فخرج هاربا من القيروان يريد تاهرت بلده. فلما صار ببساطة خرج عليه قطاع الطريق، فقتل ولده عبد الرحمن وجرح هو جرادات، فما زال في بطنه نتق منها إلى أن مات سنة (908/296– 909) وهو ابن ست وتسعين سنة.

رحل بكر بن حماد إلى بغداد و لقي المعتصم العباسي ومدحه، فوصله بصلات جزيلة، وله أبيات إلى المعتصم يحرضه فيها على دعبل الذي هجا الخليفة. قال:

أيهجو أمير المؤمنين ورهطه ويمشي على الأرض العريضة دعبل؟

أما والذي أرسى ثبيرا مكانه لقد كادت الدنيا لذاك تزلزل

ولكن أمير المؤمنين بفضله يهم فيعفو أو يقول فيفعل

وعاتب أبو تمام الشاعر بكرا على ذلك، وقال له: " قتلته و الله يا بكر." فاستمر بكر في إنشاد قصيدته هذه إلى أن قال:

وعاتبني فيه حبيب وقال لي لسانك مخذور وسمك يقتل."

وأني وأن صرفت في الشعر منطقي لأنصف فيما قلت فيه واعدل.

ومن شعره الجيد الرائتن الجميل قراء في مدح الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهجو عمران بن حطان و عبد الرحمن بن ملجم:

قل لابن ملجم – و الأقدار غالبة هدمت – ويلك – للإسلام أركانا

قتلت أفضل من يمشي على قدم وأول الناس إسلاما وإيمانا

و أعلم الناس للقرآن. ثم بما سن الرسول لنا شرعا وتبيانا

صهر النبي ومولاه و ناصره أضحت مناقبه نورا و برهانا

وكان في الحرب سيفا صارما ذكرا ليثا إذا لقي الأقران أقرانا

ذكرت قاتله – والدمع منحدر فقلت: سبحان رب الناس سبحانا

أني لأحسبه ما كان من بشر يخشى المعاد، ولكن كان شيطانا

أشقى مراد إذا عدت قبائلها وأخسر الناس عند الله ميزانا

كعاقر النافة الأولى التي جلبت على ثمود بأرض الحجر خسرانا

فلا عفا الله عنه ما تحمله ولا سقى قبر عمران بن خطانا

لقوله في شقي ظل مجترما ونـال ما نالـه ظلما وعدوانـا

"يا ضربة من تقي ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

بل ضربة من غوى أورثته لظي إلا ليصلي عذاب الخلد نيرانـا

قال أحمد بن فتح المعروف بابن الخراز التاهرتي يمدح أبا العيش بن إبراهيم بن القاسم:

قبـح الاله اللهـو إلا فينة بصريــة في حمـرة وبيــاض

الخمـر في لحظاتها والورد في وجناتها، والكثح غير مفـاض

في شكل مرجـى وشك مهاجـر وعفاف سنـي وسمت ابـاض

تاهـرت أنت خليــة و بريــة عوضت منك ببصرة فاعتـاضي

لأعذر للحمراء في كلفـي بها أو تستفيض بأبحــر وحيــاض

ما عذرهـا والبحـر عيسى ربهـا ملك الملــوك رائض الــرواض

وقال بعض شعراء تاهرت من قصيدة:

فراغ الهوى شغل . ومحيى الهو قتل ويوم الهوى حول ، وبعض الهوى كل

وجود الهوى بخل. ورسل الهوى عدى وقرب الهوى بعد. وسبق الهوى فضل

سقى الله تاهرت المنى و سويقة ولم يجتمع وصل لنا- لا- ولا شمل

فلما تمادى العيش وانشقت العصى تداعت أهاضيب النوى وهي تنهل

سلام على من لم تطق – يوم بيننا سلاما. ولكن فارقت. وبها شكل

وما هي آماق تفيض دموعها ولكنها الأرواح تجرى وتنسل.

وقال سعيد بن واشكل التيهرتي في علته التي مات منها بتنس:

نأى النوم عنى واضمحلت عرى الصبر وأصبحت عن دار الأحبة في أسر

وأصبحت عن تيهرت في دار معزل واسلمني مد القضاء من القدر

إلى تنس دار النحوس. فإنها يساق إليها كل منتقص العمر

هو الدهر و السياق والماء حاكم وطالعها المنحوس صمصامة الدهر

بلاد بها البرغوث يحمل راجلا و يأوى إليها الذيب في زمر الحشر

ويزحف فيها العام في كل ساعة بجيش من السودان تغلب الوتر

ترى أهلها صرعى دوى أم ملدم يروحون في سكر و يغدون في سكر

إن أقدم مؤرخ رستمي عرفناه هو ابن سلام بن عمروا أو ابن سلام بن عمر الذي سكن تاهرت سنة 240/ 854. وقد كان حيا سنة 260/ 873- 874. و ألف كتابا لم يصل إلينا ولا نعرف عنوانه، ومن حسن الحظ أن الشماخي نقل منه في سيرة جملا يصف فيها المؤلف رسوخ الإسلام في جبل نفوسه و يذكر تاريخ الأئمة الاباضية الأوائل أبي الخطاب المعارفي وأبي حاتم الملزوزي وتاريخ ما كان بينهم وبين إخوانهم من صلات في المشرق في عهد ولاية الإمام عبد الوهاب.

وقد استقى ابن سلام بن عمرو معلوماته التي ضمنها الفصل الأول من كتابه حول رسوخ الإسلام في جبل نفوسه من أبي صالح النفوسي الذي لقبه في توزر سنة 240/ 855- 855. إن أشهر مؤرخ في تاهرت – بعد ابن سلام بن عمرو- هو ابن الصغير مؤلف كتاب

عنوانه " ذكر بعض الأخبار في الأئمة الرستمين". ويعتبر كتابه هذا إلى الآن أقدم وثيقة وصلت إلينا حول تاريخ اباضية إفريقيا الشمالية علاوة على مقتطفات من كتاب ابن سلام بن عمرو. وقد كان المؤرخون من اباضية المغرب ينظرون إلى كتاب ابن الصغير المالكي بعين الاهتمام والتقدير . ولاسيما اثنان منهم ، وهما : البرادي في كتابه: "الجواهر المنتقاة " و الشماخي في سيره. وقد تحدثا عن كتابه كثيرا وذكروا عنه أخباراشتي في مواضع مختلفة من كتابيهما.

ولم يقف ابن الصغير ابن الصغير من اباضية تاهرت– ولاسيما الرستمين منهم– أي موقف عداء. على الرغم من وجود فقرة في كتابه يعرب فيها عن مخالفته للمذهب الاباضي، وكان يختلف إلى مسجد في حي الرهادنة وعاش في فترة من ولاية أبي اليقظان ومدة من أمامة أبي حاتم.

ويغلب على الظن أنه ألف كتابه في ولاية هذا الأخير ، حوالي سنة 290/ 903. ألف ابن الصغير المالكي كتابه في التاريخ و يتسم أسلوبه فيه بالميل إلى ذكر النوادر أكثر من عنايته بالتاريخ، يقول موتيلنسكي بحق عن كتابه أنه: دراسة وافية لتاهرت الاباضية في حياتها الداخلية".

وقد استعان ابن الصغير في تأليف كتابه بأخبار رواها عن أشخاص شتى من معارفه عاشوا في تاهرت، وكان أكثرهم اباضيين رووا عن أسلافهم ، ولا يذكر المؤلف إسم المروى عنه إلا نادرا. على أنه ينبغي أن نذكر واحدا منهم بشكل خاص كان يدعى أحمد بن بشير ، وكان من رجال الحديث في مدينة تاهرت. وكتاب ابن الصغير مصدر سنّي غاية في الأهمية ألفه صاحبة المالكي.

وليس لدينا ما يشير إلى أصل المؤلف أو نشأته، وكل ما نعرفه عنه أنه قام بتاهرت في العصر الرستمي الأخير كشيخ من شيوخ المالكية . وكان له نشاط بارز في المساجلات

والمحاورات التي شهدتها تاهرت بين مشايخ الطوائف المذهبية المختلفة إذ يصور في تاريخه جدله في المسائل الفقهية والدينية مع رؤساء الاباضية والمعتزلة، كما نعلم من تاريخه أنه كان يعمل تاجرا ويملك منذ شبابه دكانا في حي الرهادنة بتاهرت على أن أهميته كمؤرخ محقق نابه جديرة بأن ينظر إليها كل مطالع خبير لكتابه بعين التقدير والإعجاب. أما أسلوبه في تاريخه للدولة الرستمية فإنه يتسم بالصدق والوضوح والبلاغة وجمال التعبير. ونثره مرسل في متناول كل الناس ولا مبالغة في القول بأن تاريخ ابن الصغير يعد بحق أهم مصدر عن دولة بني رستم . فهو معاصر لأحداث العصر الرستمي الأخير وشاهد عيان لها، كما استمد معلوماته عن بني رستم الأوائل من معاصريه من شيوخ الاباضية وغيرهم. ولكونه سنيا ملكيا كشف لنا عن كثير من أسرار عصره مما تغاضى عنه مؤرخ الاباضة ، كما قدم لنا وجهة النظر المقابلة لتلك التي تتعصب للامامة الرستمية، ومما يلفت الانتباه أن ابن الصغير التزم بالموضوعية في تاريخه، إذ كثيرا ما أبدى إعجابه بسيرة الراشدين من الأئمة الرستمين، ولم يثنه خلافه المذهبي عن الإشادة بسياستهم. ولم يقدر لابن الصغير إن يشهد نهاية دولة بني رستم. مما يرجح أنه مات في أوائل التسعينات من القرن الثالث الهجري إذ يقف تاريخه عند امامة أبي حاتم يوسف بن حمد الملوفي سنة .... بجانب الآثار التي ذكرها والتي ألفت بالعربية آثار أخرى يحق القول بأنها دونها في القيمة ، وهي التي ألفها أصحابها باللهجة البربرية. وأقدمها في الزمان ما دبجه يراع مهدي النفوسي الذي سبق أن تحدثنا عنه. وقد فند فيها مزاعم فرقة النفاثية و يرقي تاريخ تأليفها إلى النصف الأول من القرن الثالث الهجري.

ومن بين العلماء الذين آثروا تحرير تصانيفهم باللهجة البربرية ذكر الدرجيني منهم أبا سهل الفارسي الذي كان فصيحا بلغة البربر، وقد كان ترجمان جده أفلح وقيل بل كان ترجمان خاله يوسف الامام . قيد له أثنى عشر كتابا في المواعظ و فيها جمل من تواريخ أهل الدعوة.

قد اشتهرت تاهرت أيضا بمن العلماء والمتكلمين اليهود الذين كانوا متصلين اتصالا مباشرا بالأوساط العبرية البابلية.

وقد أنجبت الحركة الدينية اليهودية المغربية في تاهرت أكبر عالم تغوى هو يهودا بن قريش التاهرتي الذي كان يحسن العربية و العبرية والبربرية و الأرامية و الفارسية وكان عالما بها كلها متضلعا فيها وهو واضع أساس علم اللغة المقارن بإبداعه منهجية جديدة لدراسة اللغة العربية مقارنا لها باللغتين الساميتين المشبهتين لها وهما الآرامية و العربية .

هذا فيما يتعلق بالحياة الأدبية في المملكة الرستمية أما ما يخص ناحية القطر الجزائري التي كانت تحت هيمنة الأغالبة فقد اشتهر بها: إبراهيم بن الأغلب (140- 196/ 757-812) فقد كان ثاني الأغالبة ولاة افريقية لبني العباس.

كان أبوه الأغلب قد وليها 148- 150/ 765- 767 فقتله ثائر- كان الرشيد ولاة بلاد الزاب- وابن العكي على افريقية كان إبراهيم بن الأغلب فقيها أدبيا شاعرا خطيبا ذا رأى ونجدة و بأس وحزم وعلم بالحروب و مكايدها جرئ الجنان طويل اللسان لم يل افريقية أحسن سيرة منه ولا سياسة ولا أرأف برعية ولا أوفى بعهد ولا أرعى لحرمة منه- كان إبراهيم قد سمع من الليث بن سعد ووهب هذا له جلاجل أو ولده لمانه منه، قال الليث يوما: ليكونن لهذا الفتى شأن. وكان لإبراهيم فضائل جمة ومآثر حسنة طاعت له قبائل البربر وتمهدت افريقية في أيامه.

كان له مع راشد (ت 188/ 804) أمير المغرب مولى إدريس الحسني مواقف و محاربة. وكان راشد قد علا أمره. وكان الأغالبة في القيروان يتتعبون أخبار الدولة الإدريسية الناشئة في جوارهم ويبعثون بالأموال للقضاء على إدريس (الرضيع) وكانت لهم يد في قتل أبيه بالسم، فما زالوا على ذلك إلى أن تمكن إبراهيم بم الأغلب من دس بعض البربر لراشد، فقتلوه غيلة في وليلي بعد نشوء إدريس و تسلمه عرش أبيه بقليل، وهو القائل- وقد خلف أهله بمصر عند التحاقه بالزاب:

ما سرت ميلا ولا جاوزت مرحلة إلا و ذكرك يثنى دائبا عنقي

ولا ذكرتك إلا بت مرتفقا أرعى النجوم كان الموت معتنقي

وقال لدى دخوله القيروان قائما بنصرة ابن العكي وهرب تمام بن تميم أمامه:

لو كنت لا قيت تماما لصال به ضرب يفرق بين الروح و الجسد

لكنه حين شام الموت يقدمني ولى فرارا وخلى عن البلـد

إن يستقم نعف عما كان قدمه وأن يعد بعدهـا في غدرة نعـد

أحمد سفيان بن سوادة بن سفيان بن سالم. بن عقال التميمي الذي توفي حوالي سنة 260/ 874 فكان من رجالات بني عمه الأغالبة. و تولى عمل الزاب ثم طرابلس سنين طويلة وله بها أخبار وآثار ووقائع مشهورة .

ثم ولي جزيرة صقلية. فأقام بها مدة. وقهر الروم البيزنطيين. وله في بر العدوة الطليانية، بلاد فلورية، فتوحات مشهورة. وكان في الأدب والجود بمكان رفيع و في مدحه يقول بكر بن حماد التاهرتي. وقائله:

زار الملـوك. فلم يغد فيا ليته زار ابـن سفيـان أحمـدا

فتى يسخط المال الذي هو ربه و يرضى العوالى و الحسام المهنـدا

توفي أحمد بالقيروان عن سن عالية. ومن شعر أحمد قوله يفتخر:

قربـوا الأبلـق. و أنـي أعرف الخيـل العتاقـا

وعليهـا أصرع الأبطـال طعنـا و اعتناقـا

اخـطب الأرواح و الأنـفس بالرمـح صداقـا

وأروى من نجيـع الهـام أسيافـا رقاقـا

تنقع الأعـداء في النقـع حميما و غساقا

فإذا ما دارت السلم بما نبغـي وفاقا

وأزحنا كل ما كان شقاقا و نفاقا

اصطحبناها سلافـا و شربناها اغتباقا

وأدرنـا الكاس بالـرا ح على الشرب دهاقا

<u>نص تطبيقي من شعر بكر بن حماد:</u>

ولد سنة 200هـ بتاهرت و بها تعلم افقه و اللغة ، غادر تاهرت نحو إفريقيا و المشرق.

انتقل إلى القيروان سنة 217هـ من أهم شيوخه:

-عون بن يوسف الخزاعي (ت:239هـ).

- سحنون بن سعيد التنوضي صاحب المدونة في الفقه بقي مدة وجيزة ثم انتقل إلى بغداد حيث نال هناك شيوخه في بغداد، تعلم الحديث من عمر بن مرزوق البصري وأبو الحسن البصري و بشر حجر .

..... اللغة والأدب: أخذ الرواية عن اللغوي أبي حاتم السجستان (ت:255هـ)

محمد بن بشير الرياشي شاعر.

ابن الأعرابي لغوي و راوية (ت: 231هـ)

وعبر الخزاعي شاعر الهجاء لبني العباسي والمدح للشيعة أبو تمام (ت: 231هـ)

علي بن جهم (ت: 249هـ)

عاد إلى القيروان عام 274هـ بثروة في الحديث و اللغة و تمكن لغوي و أدبي و لكن لم يستقر بها بل عاش بين (تاهرت و القيروان)

وقعت مناوشة بنيه وبين أحد حكام بني الأغلب فغادرها عام 269هـ.

مذهبه سني، رد على عمران بن حطان مادح قاتل بن أبي طالب رضي الله عنه (يا ضربة من تقي.....)

له ديوان شعر: الدر الوقاد في شعر بكر بن حماد التاهرتي ثم محمد بن رمضان شاوش.

-وقفة بالقبور- بكر بن حماد:

1- قفْ بالقبورِ و ناد الهامدين بها من أعظم بليت فيها وأجسادِ

2- قومٌ تقطعت الأسباب بينهم من الوصال و صاروا تحت أطواد

3- راحو جميعا على الأقدام و ابتكروا فلم يروحوا ولم يغد بهم غاد

4- والله لو أنهم ردوا ولو نطقوا إذن لقالوا التقي من أفضل الزاد

5- فبرز القوم و امتدت عساكرهم كما يوافوا لميقات وميعاد

6- ما بالقلوب حياة بعد غفلتها والله سبحان منها بمرصاد

7- أين البقاء وهذا الموت يطلبنا هيهات هيهات يا بكر بن حماد

8- بينا نرى المرء في لهو وفي لعب حتى نراه على نعشٍ و أعواد

9- هذا يذاكر دنياه منغصة فيها حزازات أحشاء و أكباد

10- وكلنا واقف فيها على سفر وكلنا ظاعن يحد و به الحاد

11- في كل يوم نرى نعشا نشيعه فرائح فارق الأحباب أو غاد

12- الموت يهدم ما نبنيه من بذخ فما انتظارك يا بكر بن حماد